المحاضرة (03) التلقي في الفكر اليوناني القديم

- تمهيد
- التلقي عند بروتاغوراس
- التلقي عند أرسطو

التلقي في الفكر اليوناني القديم

تمهيد:

لقد قامت نظرية التلقي كغيرها من النظريات الفكرية والنقدية على مرجعيات فلسفية ومعرفية، وذلك كون الفلسفة هي أم العلوم، والحقيقة أن أي عمل أدبي مهما كان جنسه، ومهما كان عصره، فإنه خاضع لشروط عملية التواصل، أقلها وجود مبدع ومتلق، ومن هذا المنطلق فإن الاهتمام بالمتلقي له جذور قديمة في الفكر اليوناني، حيث اعتبر القارئ (السامع)فاعلا أساسيا في عملية التلقي، يؤثر في النص ويتأثر به.

لقد اهتم الفلاسفة السفسطائيين أمثال (لونجينوس)(longinos) و(بروتاغوراس) (Protagoras) و (هوراس) (horace) بالمتلقي، وهذا الاهتمام نبع من اهتمامهم بالملفوظ، فالمعنى عندهم " ينحدر من الملفوظ نفسه، من إيماءاته البلاغية، ومن التلاعب الذي يحدث في النسيج اللغوي والأسلوبي له، أما تجربة التلقي (الفهم)، فهي تقف في الجانب البعيد من عملية بناء المعنى." [1]وهذا الاعتبار الذي اعتمدوه للمعنى ينطوي على أبرز مقولات نظرية التلقي الحديثة.

التلقي عند بروتاغوراسProtagoras:

إننا حين نبحث عن التلقي في الفكر اليوناني، لا نقصده بمصطلحه الحديث الحالي، ولكننا نبحث عن (المعنى)لديهم، وهذا يحيلنا حتما إلى مفاهيم التلقي، أبعاده وشروطه. اعتقد بروتاغوراس أن الإدراك الحسي للأشياء هو أصل المعرفة، فالذي يظهر لحواسي على أنه حق تماما قد لا يظهر لحواسك كذلك، والمراد هنا ليس مطلق الحواس، إنما الحواس الفردية، أي الحواس في صلتها بالذات " [2]إذ يمكننا بسهولة

[1] ناظم عودة خضر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1997، ص 12

[2] المرجع نفسه، ص 22

إسقاط هذا الاعتقاد على ما يعتقده أصحاب نظرية التلقي الحديثة على اعتبار أن حواس الفرد تقودنا إلى التأثير الانفعالي والنفسي على المتلقي، كما أن اختلاف ما يظهر للأفراد يقودنا إلى رفض القراءة الأحادية وبالآتي الإيمان بتعدد القراءات.

حاول بروتاغوراس أن يظهر فاعلية الذات في تشكيل المعنى، وبما أن الذات متغيرة فإن المعنى أيضا يكون متغيرا، وقد قام بتطبيق آرائه حول الخطابة كما فعل أغلب معاصريه السفسطائيين، ذلك أن الخطابة كانت الفن النثري الشائع آنذاك، وهنا نشير إلى نقطة هامة في الفكر السفسطائي ألا وهي الاستجابة، ذلك أن الغاية من الخطابة كانت إقناع المتلقي والتأثير فيه، لذلك " تحدّث السفسطائيون عن الاستجابة وعلاقتها بالخطابة انطلاقا من وضعهم للمستمع المتلقي في الطرف الغائي منها." [1]أي أن المتلقي هو غاية الخطابة.

لقد حرص بروتاغوراس على إيضاح وجوب عملية التفاعل بين الخطيب والسامع (المؤلف / المتلقي)كما فعل غيره من السفسطائيين الأوائل، وأن نتيجة عملية التلقي يمكن ملاحظتها وتقييمها، وهو بهذا يرى أن الإنسان (المتلقي)هو مقياس كل شيء، وقد نشطت فلسفتهم الإقناعية على هذا الأساس ومن ثم كان نشاطهم في جعل المحتمل حقيقة عن طريق الإقناع أصلا مهما من أصول التأويل .[2]ونستنتج أن بروتاغوراس يجعل معنى الخطاب وفاعليته رهينين بتفاعل الخطيب مع السامع، لأن أثر التلقي يمكن ملاحظته وتقويمه من خلال الاستجابة. ومن ثمّ يصبح المتلقي مقياس كل شيء بوصفه معيار قبول المعنى وترجيحه. وعلى هذا الأساس تقوم فلسفة الإقناع عند السفسطائيين على تحويل المحتمل إلى راجح في ذهن الجمهور، وهو ما يجعل الإقناع أصلًا مؤثرًا في اشتغال التأويل.

---

[1] ناظم عودة خضر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ص 2

[2] ينظر علي بخوش: مفهوم التلقي في الفكر اليوناني القديم، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري القديم، جامعة بسكرة، 2006، ع 3، ص 142

التلقي عند أرسطو:

لا شك في أن أغلب القضايا النقدية الحديثة كان لها إرهاصات في الفكر الأرسطي من خلال كتابيه(فن الشعر) و (فن الخطابة)لذلك نجد أن مؤرخي النقد " يحرصون على ربط العملية النقدية بأصولها الإغريقية ويعدون أرسطو عمدة في تاريخ النقد الأدبي، وقد عدّه الكثيرون المؤسس الحقيقي للنقد، و واضع المواد النقدية لمن جاء بعده " [1]، ويمكن للدارس أن يستشف أغلب ملامح نظرية التلقي من خلال النظريتين الشهريتين (نظرية التطهير)و (نظرية المحاكاة)ويؤكد ذلك أحد الدارسين بقوله "ربما كان أرسطو في تاريخ الحركة النقدية من أبرز رواد الفكر اليوناني اهتماما بفلسفة التلقي، أو مفهوم الجمال في استقبال النص، ففي رصيده الفكري والنقدي يتمثل لنا اهتمامه بهذه المسألة وكأنها محور هام يستقطب تفكيره، ويستجمع فلسفته في الحديث عن أجناس الأدب." [2]وقد كانت مقولاته حول الشعر والشاعر في صلب اهتمامات أصحاب التلقي.

إن حضور نظرية التلقي في النقد الحديث لم يأتِ من فراغ، إذ يجد جذوره المبكرة في التصورات الأرسطية التي ربطت الأدب بأثره في المتلقي وبشروط استجابته الجمالية؛ فحين جعل أرسطو من المحاكاة أساسًا لتمثيل الفعل الإنساني، وربط تحقق القيمة الفنية بما تُحدثه التجربة من استجابة وانفعال، فإنه كان يضع المتلقي في قلب العملية، وإن لم يسمّه بذلك صراحة. وهذا الامتداد الأرسطي يتجلى بوضوح في تصور ياوس للمتعة الجمالية بوصفها لحظة "اتصال" تُبنى داخل علاقة العمل بمتلقيه، إذ يقرر حسين أحمد بن عائشة أن: "وفيما يخص المرحلة الثانية للمتعة الجمالية، وهي

---

[1] عباس ارحيلة: الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1، 1999، ص 166

[2] محمود عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب العربية الحديثة وتراثنا النقدي (دراسة مقارنة)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996، ص45

حدوث (الاتصال) الذي نلمس تأثر ياوس واضحا بفلسفة التلقي عند أرسطو"؛ وهو قولٌ يوضح أن أثر العمل ليس نتيجة عرضية تقع بعد اكتمال النص، إنما هو جزء من بنيته الوظيفية: فالنص يُصمَّم ليُحدث "اتصالًا" يحرّك الإدراك والانفعال، ومن ثم تتحول المتعة إلى تجربة لها وظيفة اجتماعية/قيمية، لأن ما يرسخ في الوجدان لا يبقى شعورًا عابرًا، بل قد يتطور إلى موقفٍ يتبناه المتلقي ويعيد به إنتاج معنى العمل ضمن سياقه.

وبالنظر إلى مسألة (المحاكاة)فإن لها صلات وثيقة بالتلقي "لأنه إذا كانت المحاكاة لدى أفلاطون نظرية فلسفية، فإنها عند أرسطو نظرية فنية، فالشاعر ليس حامل مرآة ينظر إلى مظاهر الأشياء فيها، وإنما هو إنسان يروم إلى محاكاة جوهر الطبيعة الكامن في الأشياء، بما يفضي إلى فهمه وصقله، فهو يحاكي ما يمكن أن يكون ولا يحاكي ما هو كائن " [2] فالشاعر الذي يقدم الواقع تماما كما يراه، لا حاجة للمتلقي بمساءلة نصه، لأنه يراه في الواقع هو أيضا، ولكن حين يحاكي الشاعر ما يمكن أن يكون، فهنا يكون المتلقي أمام دهشة وحيرة، تدفعه إلى الكشف عن المعنى، ويوضح علي بخوش ذلك بقوله"..... المبدع هو من يمتلك أدوات الإقناع، ويبثها في نصّه، بعد أن يوظفها توظيفا مؤثرا، بيد أن دور المتلقي لا يغيب عن العملية، فالإقناع الذي يقصده المبدع يقتضي معرفة آليات التلقي لدى السامع " [3] نستنتج هنا، أن نجاح النص مرتبط بقدرة المبدع على توظيف أدوات الإقناع داخل خطابه، لكن تحقق هذا الإقناع يظل

[1] - حسين أحمد بن عائشة، مستويات تلقي النص الأدبي (رحلة السندباد البحري الأولى نموذجاً)، دار جرير للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 2012، ص 54.

[2] عصام قصبجي: نظرية المحاكاة في النقد العربي القديم، دار القلم العربي للطباعة والنشر، مصر، ط1، 1988، ص 13

[3] علي بخوش: مفهوم التلقي في الفكر اليوناني القديم، ص 143

مشروطًا بحضور المتلقي ومعرفة آليات تلقيه. فالتأثير يكتمل في لحظة الاستقبال حيث تُقاس فاعلية الخطاب باستجابة السامع وفهمه.

وأصل الكلمة يوناني (catharsis) ويترجم بمعنى (التطهير) أو التنقية أو التنظيف وهي الكلمة التي وردت في ترجمة أبي بشر بن متى لكتاب أرسطو (فن الشعر) [1] ويعد أرسطو أولّ من طرح فكرة التطهير التي تعني " الانفعال الذي يحرّر من المشاعر الضارة....وقد حّدده كفاية للتراجيديا من حيث تأثيرها النفسي والتربوي على الفرد " [2] فالمتلقي وهو يتابع التراجيديا، ينفعل معها وتصير بداخله مشاعر متعددّة، الحزن، الخوف، الشفقة، الندم، وكل هذه المشاعر كفيلة بجعله يتعرّف على مواطن الشر بداخله ويتخلص منها.

يعد (التطهير) الأداة الأساسية التي تؤكد لنا اعتناء أرسطو بالتلقي، بل هي واجهة التلقي الأولى، إذ طالما اهتم أرسطو بالمشاهد كمتلقي مباشر للتراجيديا، من حيث التأثير الذي تتركه المسرحية (النص) في المشاهد (المتلقي)، فهو يرى أن " المشاهد يشفى مما يعاني من مكبوتات، فيحس بالراحة والتفوق والتوازن من الناحية العاطفية وكأن الإنسان يأخذ العبرة حين يحل الشقاء ويزل العقاب بسواه، ويشعر بالسرور في نهاية التراجيديا من خلال ما يجربه من مقارنة بين مصير البطل وبين وضعه الإنساني الخاص " [3] وهذا ما يجعلنا نعرف بأن أرسطو كان واعيا بأهمية الأثر الذي يتركه العمل الإبداعي في عملية التلقي، وأن هذا الأثر لا يحصل إلا بعملية التفاعل بين النص والمتلقي.

---

[1] نقلا عن: علي بخوش، المرجع السابق، ص144

[2] المرجع نفسه، ص 144

[3] عباس ارحيلة: الأثر الأرسطي، ص 210

ونخلص إلى أن ملامح نظرية التلقي كانت واضحة في الفكر اليوناني القديم وذلك باعتناء فلاسفة اليونان بالذات الفاعلة التي تؤثر وتتأثر بالعمل الأدبي مهما كان جنسه.

مقولة للتفكير التّحفيزي (03)

"خلال خبرة التلقي المسرحية، فالمشاهد يتعاطف مع الممثل ويشعر بالخوف والشفقة، كما أشار أرسطو، لكنه يشعر أيضا بالأمن.. فالأحداث المرتبطة بمشاعر الرعب والغضب والانتقام، والخوف لا تحدث له، بل تحدث على مسافة منه، ومن ثم فإنه على الرغم من تعاطفه وحالة الشفقة لديه، أو شعوره بالخوف، يشعر أيضا بأن الأحداث...ليست حقيقية، بل حتى لو كانت حقيقية فإنها لا تحدث له بل لشخص آخر"

عباس ارحيلة: الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1، 1999، ص، 48